نظرة في كتاب

علي الدِّيب: شاعراً وكاتباً وأديباً

دراسة تحليلية نقدية

د. عقيل البربار

قسم التاريخ – كلية الآداب

جامعة طرابلس.

قـــدم مخطوط هذا الكتاب في الأصل رسالة ماجستير إلى قسم اللغة العربية كليـــة الآداب – الزاوية– جامعة الزاوية، أعدته الباحثة نجية حسين التهـــامي، وأشـــرف علـــى الرسالة الدكتور الطاهر القراضي، وهو أستاذ متميز طبقت شـــهرته الجامعـــات الليبيـــة، وناقشتها واجازتها لجنة تكونت، بالإضافة إلى الأستاذ المشرف أستاذين مـــن معـــروفين الدكتور الطيب علي الشريف من جامعة الزاوية، والـــدكتور عبـــد المطلـــب عبدالحميـــد الطبولي من جامعة بنغازي.

تميزت صاحبة الرسالة هي الأخرى بإصرارها على عملها، وحبها لموضـــوعها، وقدرتها على تحفيز الكثير من أساتذتها وزملائها، وزميلاتها، لمساعدتها، إضافة إلى ملكة

الصبر والأناة والتقصي لديها، خدمت الرسالة فخرجت جيدة ذات مستوى عال.

الكتاب مقسم إلى مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة: في الفصل الأول تتحدث الباحثة عن: الحياة العامة و(حياة علي الدِّيب)، وهو مقسَّم إلى مباحث ثلاثة عناوينها: الحياة الثقافية والحياة السياسية والحياة الاقتصادية، ثم حياة علي الدِّيب، وأخيراً وظائفه وعلاقاته الشخصية. الفصل الثاني المعنون: مسرد النتاج الأدبي، مقسَّم إلى مباحث خمسة الأول: يُغطي النصوص الشعرية، والثاني: يهتم بالنصوص النثرية (ما قبل صحيفة الليبي) والثالث: يستعرض افتتاحيات الليبي. أما المبحثان الرابع والخامس: فيهتمان بمقالات علي الدِّيب في عموده (أمام المرآة) وما دبَّج من خطب ومراثٍ على التوالي.

الفصل الثالث الدراسة والتحليل الفنِّي، مقسم إلى مباحث أربعة هي: نماذج من شعره، ونماذج من افتتاحياته في صحيفة الليبي، ونماذج من عموده (أمام المرآة)، ونماذج من خطبه ومراثيه، على التوالي.

تأتي بعد ذلك الخاتمة التي تشير فيها إلى ما استنتجته الباحثة من عملها. لقد أشارت إلى عديد النتائج نذكر منها أن المرحوم (بإذن الله) الأستاذ على الدِّيب كان صاحب اطلاع واسع على روافد الثقافة، وأن تطوير الذات لديه جاء عن هذه الطريق، كما أن مصادر ثقافة الرجل كتاب الله ومأثور العرب شعراً ونثراً وحكمةً، فلا يخلو مقال من مقالاته من هذين المصدرين، كما لم تجد الباحثة أي أثر للاتجاهات الأدبية الأجنبية – رغم إجادته التامة للغة الإيطالية كتابة وقراءة ومحادثة في سن مبكرة وبتفوق – على المستوى الشخصي وجدت الباحثة أن الأستاذ علي الدِّيب لم يتخذ خطبه وسيلةً للتزلف أو النفاق أو البحث عن المصالح الشخصية. لم يطبل لذوي الجاه والسلطان وإنما كان سيفا مسلطا على رقبة الزيف وسوطاً يلهب البهتان. ليس هذا فحسب، بل تضيف القول أن علي الدِّيب تنازل عن بعض ما يستحق تحاشياً للانزلاق فيما لا يستحق.

اتفق مع الباحثة في كل ما توصلت إليه من نتائج، وأضيف إلى أن رمزية علي

الدِّيب أعمق وأوسع من ذلك بكثير .الأستاذ علي الدِّيب – موضوع الرسالة – لـه وقع خاص على (جيل السيتينيات) من القرن الماضي، الذي بدأ يلتمس طريقه نحو القراءة، بعد أن كان قد التحق بالمدارس في الخمسينيات من القرن ذاته، واستفاد من الحرية الثقافية السائدة آنذاك زمن العهد الملكي. مثَّل الأستاذ علي الدِّيب وزملاء ومعاصرون له حب ليبيا قولا وعملا؛ وشكلت أفكارهم تياراً فكرياً يتمحور حول ليبيا وحبها. ومن هؤلاء الزملاء والمعاصرين الشيخ الطاهر أحمد الزاوي، والشاعر أحمد الشارف، والشاعر أحمد رفيق المهدوي، والأستاذ الشيخ عبدالسلام خليل، ووالي طرابلس فاضل بن زكري، ورئيس الوزراء محمد الساقزلي، والسياسي الوطني محمد الهنقاري، والمؤرخان الأستاذ محمد مصطفى بازامة والأستاذ مصطفى عبدالله بعيو، والدكتور فؤاد الكعبازي.

رغم أن الكتاب نظر إلى الأستاذ علي الدِّيب شاعراً وكاتباً وأديباً، فإنه تعرّض أحياناً بشكل مباشر وأحياناً بالإيماء إلى آرائه السياسية وإسهاماته، وإن لم يُجدِّرها. هذا ليس نقصاً في الكتاب لأنه لم يكن ذلك غرضاً من أغراضه. أستميح القارئ الإجابة عن السؤال: أين يقع الأستاذ علي الدِّيب من منظومة الثقافة والفكر في هذا البلد الحبيب؟ علي الدِّيب رجل سياسي ينتمي من وجهة نظري إلى ما صار يُعرف بالهوية الليبية؛ فقد أكد عليها قبل أن يؤكد على غيرها، ليست ايماءً بتوقعاته– كما أشارت الكاتبة فقط، ولكن بأسلوب مباشر وصريح. أنشأ علي الدِّيب صحيفة باسم (الليبي) عرّفها بأنها جريدة أسبوعية سياسية جامعة، سنة 1951 قبل الاستقلال، ((للقضاء على الروح الانفصالية التي كانت سائدة بين زعماء ليبيا قبل الاستقلال، ومحاولة لطمس اللّون الصحفي الذي كان يُغذي هذه الروح في جريدتي طرابلس الغرب و برقة الجديدة....)). ألغيت جريدة اللِّيبي في سنة 1953، لكنه أعادها للحياة في يناير 1959.

وبهذا التأسيس يكون علي الدِّيب قد أنجز أمرين: الأول: أنه طور مهمة الصحافة في زمانه في ليبيا من مهمة اخبارية فقط ((إلى إبداء الرأي وتحليل المواقف وتوجيه الرأي

العام إلى الأهداف الصحيحة التي ينشدها المجتمع في رحلة التَّطور التي يعيشها خاصةً في دولة حديثة النشأة يغلب على سكانها طابع الأمية....))، الأمر الثاني: أن علي الدِّيب بهذا التأسيس والرأي الشجاع المعلن يكون قد أسهم في بناء ما يُعرف بالهوية الليبية، التي بدأها سياسياً رأى كاتب هذه الحروف – المرحوم – بإذن الله – محمد إدريس السنوسي – الذي أصبح ملك ليبيا في عام 1951، نتيجة خلاف في الرأي بينه وبين ابن عمه السيد أحمد الشريف شيخ الحركة السنوسية وزعيم حركة المقاومة والجهاد ضد الغزو الإيطالي في عام 1915. كان السيد أحمد الشريف عضوا في ((حركة الجامعة الإسلامية)) فأمر بمهاجمة الإنجليز في مصر (هناك من يقول أنه تم توريطه...) في حين عارض محمد إدريس السنوسي ذلك استناداً إلى أن المجاهدين الليبيين لا قِبل لهم بذلك، وأن مهمتهم كانت الجهاد ضد الإيطاليين في ليبيا وليس ضد أي كان غيرهم. أما منشأ فكرة الهوية الليبية تاريخياً في الفترة الحديثة فإنها تعود إلى ثورة عام 1672. لكن هذا ليس موضوعنا ونتوقف عند هذا الحد، ونعود إلى زمن علي الدِّيب.

لم يكن علي الدِّيب الوحيد في جيله من حمل الآراء الليبية. لقد سبق أن ذكرنا بعضاً منهم. كان جميع أولئك مغرمين ببلدهم ليبيا، باحثين عن أوصوله، حسَّاسين تجاه أي خطر يُيَمْمُ نحوه، مدافعين عن استقراره وشرعية الإجراءات فيه، غيورين على استقلاله مدافعين عنه، مدبجين القصائد في حبه، حريصين على استخدام إمكاناته لأهله دون غيرهم.

في مثال من أمثلة الدفاع عن شرعية الإجراءات في البلاد ما حدث في سنة 1953 – 1954 ((في تلك السنة حدثت أزمة سياسية دستورية بين المجلس التشريعي لولاية طرابلس وبين الملك إدريس السنوسي))، تمثلت تلك الأزمة في أن الأستاذ علي الدِّيب – الذي كان رئيس المجلس التشريعي في الولاية – كما يقول خالد الحروب في مقال له بعنوان: ليبيا قيام الجمهورية الأولى، المنشور في صحيفة تناول ((اعتراض

المجلس التشريعي على التشريعات الموسّعة لوالي طرابلس بحسب مشروع القانون الأساسي للولاية والذي يحصن الوالي من المثول امام المجلس التشريعي للمحاسبة، رفض المجلس التشريعي القانون وألزم الوالي أن يكون مسؤولاً أمامه، الأمر الذي أغضب المتنفذين في الدولة، فاستصدروا قراراً من الملك يحل فيه المجلس. فاعترض المجلس على قرار الملك أمام المحكمة العليا وطعن في دستوريته، وذلك أن القرار يجب أن يوافق عليه مجلس الوزراء ورئيس الحكومة. وعليه أصدرت المحكمة العليا(حُكماً) يقضي ببطلان الأمر الملكي، وعدم دستوريته. وقد التزمت الحكومة التي كان يرأسها محمد الساقزلي بالقرار (الحكم)".

وكمثال لحبهم لبلدهم والبحث عن أوصوله، بحث مصطفى عبدالله بعيو – على سبيل المثال – عن أي شيء كتب عن ليبيا قديمه وحديثه ليقرأه وينقله مترجماً إلى اللغة العربية إلى بني وطنه. كان نتيجة جهده كتاب بعنوان: المختار في مراجع تاريخ ليبيا، في مجلدات ثلاثة، لم يصدر حتى الآن – حسب ما أعلم – ما يفوقه جودة في موضوعه.

كان تيار الهوية الليبية واقعياً غير حزبي لم ينتقل من مرحلة الفكرة إلى مرحلة التنظيم مثل ما حدث مع البعث والإخوان، وظل يُعبّر عنه أحياناً باستحياء في الأدب وفي التاريخ وفي الصحافة. كان تياراً ليبياً خالصاً وديموقراطياً، يُدافع عن آرائه وما يعتقد صدقه باستماتة، انتقد كل رأي لديه تقصير في حق ليبيا، مثل انتقاد الأستاذ علي الدِّيب للسيد أدريان بلت. كذلك كان التيار حسَّاساً تجاه الاستقلال شعاره: "المحافظة على الاستقلال أصعب من نيله"؛ انزعج علي الدِّيب عندما رأى قطعاً من الأسطول الإيطالي راسية في ميناء طرابلس فتذكر أيام الغزو والمقاومة وكتب في 1960/2/20 يُذكِّر مواطنيه بها ويلوم الحكومة الليبية على منح الإذن للأسطول بالزيارة، واستفزاز مشاعر الشعب. وفي هذا السياق يحذِّر من العلاقة بقوله: "اندفعت بلادنا تحتضنها (العلاقة مع إيطاليا) في شوق غريب، وتثق في نياتها ثقة عمياء وتحسن الظن بتصرفاتها... فاصبحت

البضاعة لا تستورد إلاّ منها أو عن طريقها، والطبيب والمهندس والفني لا يستجلب إلا منها ....)).

كان التيار غارقا في مرحلة ما بعد الاستقلال ساعياً للمحافظة عليه. ساند (الدستور) – الذي وصفه علي الدِّيب بأنه (يقرب من الكمال)، وخاف التيار الاستثمار الأجنبي ونبّه إلى خطره: في تحليل استشرافي رائع، رأى الدِّيب أن الغاية من دخول الاستثمار الأجنبي: 1– أن يُدخِل معه أفكاراً بنّاءة. 2– وأن يُطعِّم الاقتصاد بدماءٍ شابّة. 3– وأن يُحدِثَ حركة طيبة في ميدان التجارة. 4– وأن يولِّدَ نشاطاً حيوياً في مجال التصنيع، أي أن يبقى في حالة دوران دائمة لا تستقر ولا تهدأ. أما أن يجدد هذا الرأسمال في عقارات وجدران ويقبر في مشاريع شخصية بحتة ويُستغل في مضاربات الجشع، ويستعمل لمضايقة العنصر الوطني، ومزاحمة ابن البلد الأصيل، فهذا هو الاستعمار الاقتصادي بعينه، وهو الضربة القاصمة لظهر الوطن، وهو المعول الهدّام لأساس الاستقلال)) ص 136، ويضيف ((ولكن هذا – مع الأسف الشديد – هو الذي حدث فعلاً في بلادنا... فهذا يبني في كل منطقة من المدينة والدواخل سينما، حتى أصبح في سنوات عديدة (ملك السينمات) ولكأن الاقتصاد الليبي في حالة إلى دُورٍ يرقص على شاشاتها شكوكو، وينكت على مسارحها اسماعيل يس، ويغنِّي على سرادقها عبدالحليم حافظ)) ص 137، واختم القول ((إن كل بلاد الله تحظر الاستملاك عن كل أجنبي حتى لا يزاحم المواطن ... وعلى المسؤولين أن يعملوا على انقاذ الوطن...)) ص 138.

وبعد، فالكتاب رائع غني بالمعلومات، وتعكس الأفكار فيه: ليبيا لأن الأستاذ علي الدِّيب علم من أعلام الأدب والثقافة والسياسة في هذا البلد الحبيب، شكراً للباحثة على هذا العمل وشكراً للأستاذ المشرف على إشرافه المتقن.